الطُّفولتان[١]

(عِصمت) ابنُ فلان باشا طفلٌ مُترفٌ ، يكادُ ينعصرُ ليناً ، وتراه يرفُّ رَفيفاً ممَّا نشأ في ظلال العزِّ ، كأنَّ لروحه من الرقَّة مثلَ ظلِّ الشَّجرة حول الشَّجرة ، وهو بين لِداته[٢] من الصِّبيان كالشَّوكة الخضراء في أمْلُودِها الريَّان ، لها منظرُ الشَّوكةِ على مَجَسَّةٍ ليِّنةٍ ناعمةٍ تُكذب : أنَّها شوكةٌ إلا أن تيْبَسَ ، وتتوقَّح .

وأبوه « فلان » مديرٌ لمديرية كذا ، إذا سُئل عنه ابنُه ، قال : إنَّه مدير المديرية ، لا يكاد يعدو هذا التَّركيب ، كأنَّه من غرور النِّعمة يأبى إلا أن يجعل أباه مديراً مرَّتين . . . وكثيراً ما تكون النِّعمةُ بذيئةً وقاحاً سيِّئة الأدب في أولاد الأغنياء ، وكثيراً ما يكون الغنى في أهله غِنى من السَّيِّئات لا غير !

وفي رأي (عصمت) أنَّ أباه من عُلُوِّ المنزلة كأنَّه على جنَاح النَّسر الطَّائر في مَسْبَحِه إلى النَّجم ، أمَّا آباء الأطفال من النَّاس ؛ فهم عنده من سقوط المنزلة على أجنحة الذُّباب ، والبعوض ؟

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسته ولا يتروَّح منها إلا وراءه جنديٌّ يمشي على أثره في الغَدْوة ، والرَّوْحة ؛ إذ كان ابنَ المدير ، أي : ابن القوَّة الحاكمة ، فيكون هذا الجنديُّ وراء هذا الطِّفل كالمَنْبَهة له عند النَّاس . تُفْصِح شارته العسكريَّة بلغات السَّابِلةِ[٣] جمعاء : أنَّ هذا هو ابن المدير ، فإذا رآه العربيُّ ، أو اليونانيُّ ، أو الطِّليانيُّ ، أو الفرنسيُّ ، أو الإنجليزيُّ ، أو كائن مَن كان من أهل الألسنة المتنافرة ؛ التي لا يَفهَم لسانٌ منها عن لسانٍ ؛ فهموا جميعاً من لغة هذه الشَّارة : أن هذا هو ابن المدير ؛ وأنَّه من الجنديِّ الذي يتبَعُه كالمادَّة من القانون وراءها الشَّرح . . . !

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشَّرف الصِّبيانيّ لو أنَّه يوم وُلِدَ لم يولد ابنَ

(١) انظر « عمله في الرسالة » و« عود على بدء » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .
(٢) « لداته » : جمع لِدَة ، وهو الذي وُلِد معك في وقت واحد .
(٣) « السابلة » : المارُّون على الطريق المسلوكة .

ساعته كأطفال النَّاس ، بل وُلِد ابن عشر سنين كاملةٍ لتشهد له الطَّبيعة : أنَّه كبيرٌ قد انصدعت به مُعجزةٌ ! وإلا ؛ فكيف يمشي الجنديُّ من جنود الدَّولة وراء طفلٍ ، فيتبعُه ، ويخدمُه ، وينصاع لأمره ، وهذا الجنديُّ لو كان طريد هزيمةٍ قد فرَّ في معركةٍ من معارك الوطن ، وأُريد تخليدُه في هزيمته ، وتخليدُها عليه بالتَّصوير ـ لما صُوِّر إلا جنديّاً في شارته العسكرية منقاداً لمثل هذا الطِّفل الصَّغير كالخادم : في صورة يُكتب تحتها : « نُفايَةٌ عسكريَّةٌ ! » .

* * *

ليس لهذا المنظر الكثيرِ حدوثه في مصر إلاَّ تأويلٌ واحدٌ : هو أنَّ مكان الشَّخصيات فوق المعاني ، وإنْ صغرَتْ تلك ، وجَلَّت هذه ؛ ومِن هنا يكذبُ الرَّجل ذو المنصب ، فيُرفع شخصُه فوق الفضائل كلِّها ؛ فيكبُر عن أن يكذبَ فيكون كذِبُه هو الصِّدق ، فلا يُنكَر عليه كذِبُه ؛ أي : صِدقه . . . ! ويخرج من ذلك أنْ يتقرَّر في الأمَّة : أنَّ كذِبَ القوَّة صِدْقٌ بالقوَّة !

وعلى هذه القاعدة يُقاس غيرها من كلِّ ما يُخذَل فيه الحقُّ ؛ ومتى كانت الشَّخصيات فوق المعاني السَّامية ، طَفِقت هذه المعاني تموج موجَها محاوِلةً أن تعلو ، مُكرَهةً على أن تَنزل ؛ فلا تستقيم على جهةٍ ، ولا تنتظم على طريقةٍ ؛ وتُقبِل بالشَّيء على موضعه ، ثمَّ تكرُّ كرَّها ، فتدبر به إلى غير موضعه ، فتضلُّ كلُّ طبقةٍ من الأمَّة بكُبرائها ، ولا تكون الأمَّة على هذه الحالة في كلِّ طبقاتها إلا صغاراً فوقهم كبارُهم ، وتلك هي تهيئة الأمَّة للاستعباد متى ابتُلِيَت بالَّذي هو أكبر من كبارها ؛ ومن تلك تنشأ في الأمَّة طبيعة النِّفاق يحتمي به الصِّغَر من الكِبَر ، وتنتظم به أُلْفة الحياة بين الذِّلَّة والصَّولة(١) !

* * *

وتخلَّف الجنديُّ ذات يوم عن موعد الرَّواح من المدرسة ، فخرج (عصمت) فلم يجده ، فبدا له أن يتسكَّع(٢) في بعض طرقِ المدينة ؛ لينطلق فيه ابن آدم لا ابن المدير ، وحنَّ حنينُه إلى المغامرة في الطبيعة ، ولبسَت الطُّرق في خياله الصَّغير

---

(١) « الصولة » : السطوة في الحرب ، والقدرة ، والقهر .

(٢) « يتسكع » : يمشي لا يدري أين يذهب .

زينتَها الشِّعرية بأطفال الأزقَّة يلعبون ، ويتهوَّشون ، ويتعابثون ، ويتشاحنون[(١)] ؛ وهم شتَّى ، وكأنَّهم أبناءُ بيتٍ واحد مسَّتْ بكلٍّ من كلٍّ رحِمٌ ؛ إذ لا ينتسبون في اللَّهو إلا إلى الطُّفولة وحدها .

وانساق (عصمت) وراء خياله ، وهرَب على وجهه من تلك الصُّورة الَّتي يمشي فيها الجنديُّ وراء ابن المدير ، وتغلغل في الأزقَّة لا يبالي ما يعرفه منها ، وما لا يعرفه ؛ إذ كان يسير في طرقٍ جديدةٍ على عينه ، كأنَّما يحلم بها في مدينةٍ من مدن النَّوم .

وانتهى إلى كَبْكَبَةٍ[(٢)] من الأطفال ، قد استجمعوا لشأنهم الصِّبيانيِّ ؛ فانتَبذ[(٣)] ناحيةً ، ووقف يُصغي إليهم متهيِّباً أن يُقْدِمَ ، فاتَّصل بسمعه ، ونظره كالجبان وتسمَّع ، فإذا خبيثٌ منهم يعلِّم الآخرَ كيف يضرب إذا اعتَدى ، أو اعتُدِيَ عليه ، فيقول له : اضربْ أينما ضربتَ ، من رأسِه ، من وجهه ، من الحُلقوم ، من مَرَاقِّ البطن[(٤)] ؛ قال الآخر : وإذا مات ؟ فقال الخبيث : وإذا مات ؛ فلا تقل إنِّي أنا علَّمتُك . . .

وسمع طفلاً يقول لصاحبه : أما قلتُ لك : إنَّه تعلَّم السَّرقةَ من رؤيته اللُّصوص في السِّيما ؟ فأجابه صاحبه : وهل قال له أولئك اللُّصوص الذين في السِّيما : كن لصَّاً ، واعملْ مثلنا ؟

وقام منهم شيطانٌ فقال : يا أولاد البلد ! أنا المدير ! تعالوْا ، وقولوا لي : « يا سعادة الباشا ! إنَّ أولادنا يريدون الذَّهاب إلى المدارس ، ولكنَّا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات . . . » فقال الأولاد في صوتٍ واحدٍ : « يا سعادة الباشا ! إنَّ أولادنا يريدون الذَّهاب إلى المدارس ، ولكنَّا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » ! فردَّ عليهم (سعادته) : اشتروا لأولادكم أحذيةً ، وطرابيش ، وثياباً نظيفةً ، وأنا أدفع لهم المصروفات .

فنظر إليه خبيثٌ منهم ، وقال : يا سعادة المدير ! وأنت فلماذا لم يشترِ لك أبوك حذاء . . . ؟

---

(١) « يتشاحنون » : يتباغضون ، ويتعادون .

(٢) « كبكبة » : جماعة .

(٣) « انتبذ » : اعتزل ، وانفرد .

(٤) « مراقّ البطن » : أسفله وما حوله مما رقَّ ، ولان .

وقال طفلٌ صغيرٌ : أنا ابنك يا سعادة المدير ! فأرسِلني إلى المدرسة وقتَ الظُّهر فقط . . . !

* * *

وكان (عصمت) يسمع : ونفسه تهتزُّ ، وترِفُّ بإحساسها ، كالورقة الخضراء عليها طَلُّ النَّدى[١] ، وأخذ قلبُه يتفتَّح في شعاع الكلام كالزَّهرة في الشَّمس؛ وسكِر بما يسكَر به الأطفالُ حين تقدِّم لهم الطَّبيعة مكانَ اللَّهو مُعَدّاً مهيَّأ ، كالحانة ليس فيها إلا أسباب السُّكر ، والنَّشوة ، وتمام لذَّتها : أنَّ الزَّمن فيها منسيٌّ ، وأنَّ العقل فيها مُهمَلٌ . . .

وأحسَّ ابن المدير : أنَّ هذه الطَّبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيَّتهم ، وسجيَّتها إنَّما هي المدرسة الَّتي لا جُدران لها ، وهي تربية الوجود للطِّفل تربيةً تتناوله من أدقِّ أعصابه ، فتُبدِّد قواه ، ثمَّ تجمعها له أقوى ما كانت ، وتُفرغُه منها ، ثمَّ تملؤه بما هو أتمُّ وأزيد ، وبذلك تكسبه نموَّ نشاطه ، وتعلِّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النَّشاط ، فتهديه إلى أن يُبدع بنفسه ، ولا ينتظر من يُبدع بنفسه له ، وتجعل خُطاه دائماً وراء أشياءَ جديدةٍ ، فتُسدِّده من هذا كلِّه إلى سرِّ الإبداع ، والابتكار ، وتلقِّيه العِلم الأعظم في هذه الحياة ، عِلم نَضْرة نفسه ، وسرورِها ، ومرحِها ، وتطبعه على المزاج المتطلِّق المتهلِّل المتفائل ، وتتدفَّق به على دنياه كالفَيضان في النَّهر ، تفور الحياة فيه ، وتفور به ، لا كأطفال المدارس الخامدين ، تعرف للواحد منهم شكل الطِّفل ، وليس له وجودُه ، ولا عالمُه ، فيكون المسكين في الحياة ، ولا يجدها ، ثمَّ تراه طفلاً صغيراً ، وقد جمعوا له هُمومَ رجلٍ كاملٍ !

ودبَّت روح الأرض دبيبها في (عصمت) ، وأوحت إلى قلبه بأسرارها ، فأدرك من شعوره : أنَّ هؤلاء الأغمارَ الأغبياءَ من أولاد الفقراء والمساكين ، هم السُّعداء بطفولتهم ، وأنَّه هو وأمثاله هم الفقراء والمساكين في الطُّفولة ؛ وأنَّ ذلك الجنديَّ ؛ الَّذي يمشي وراءه ؛ لتعظيمه ، إنَّما هو سجنٌ ، وأنَّ الألعاب خيرٌ من العلوم ؛ إذ كانت هي طِفْلِيَّة الطِّفل في وقتها ، أمَّا العلوم فرُجولة مُلزَقةٌ به قبل وقتها ، تُوقِرُه وتحوِّله عن طباعه ، فتقتل فيه الطُّفولة ، وتهدم أساس الرُّجولة ،

---

(١) « الندى » : قطرات ماءٍ كالمطر تُرى عند الصباح على النبات وغيره .

فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ، ولا إلى هذه ، يكون في الأوَّل طفلاً رجلاً ، ثمَّ يكون في الآخر رجلاً طفلاً .

وأحسَّ ممَّا رأى وسمع : أنَّ مدرسة الطِّفل يجب أن تكون هي بيته الواسعَ ؛ الَّذي لا يتحرَّجُ أن يصرخَ فيه صُراخه الطَّبيعيَّ ، ويتحرَّكَ حركته الطَّبيعية ، ولا يكون فيه مدرِّسون ، ولا طلبة ، ولا حاملو العِصِيِّ من الضُّبَّاط ، بل حقُّ البيت الواسع أن تكونَ فيه الأبوَّة الواسعة ، والأخوَّة ؛ الَّتي تنفسِح للمئات ؛ فيمرُّ الطِّفل المتعلِّم في نشأته من منزل إلى منزلٍ إلى منزلٍ ، على تدريجٍ في التَّوسُّع شيئاً فشيئاً ؛ من البيت ، إلى المدرسة ، إلى العالم .

* * *

وكان (عصمت) يحلم بهذه الأحلام الفلسفيَّة ، وطفولتُه تَشِبُّ وتسترجِل ، ورخاوته تشتدُّ ، وتتماسك ، وكانت حركاتُ الأطفال كأنَّها تحرِّكه من داخله ؛ فهو منهم كالطِّفل في السِّيما حين يشهد المتلاكمين ، والمتصارعين ، يَستطير الفرحُ ، ويتوثَّبُ فيه الطِّفل الطَّبيعيُّ بمرَحِه ، وعُنفوانه ؛ وتتقلَّص عضلاته ؛ ويتكشَّف جِلده ؛ وتجتمع قوَّتُه ؛ حتَّى كأنَّه سيُظاهر أحدَ الخصمين ، ويَلكم الآخرَ ، فيُكوِّرُه ، ويصرعه ، ويفُضُّ معركة الضَّرب الحديديِّ بضربته اللَّينة الحريرية . . . !

فما لبث صاحبنا الغريرُ النَّاعم أن تخشَّن ؛ وما كذَّب أن اقتحم ، وكأنَّما أقبل على روحه الشَّارع ، والأطفالُ ، ولهوهم ، وعبثُهم إقبالَ الجوِّ على الطَّير الحبيس المعلَّق في مسمار ؛ إذا انفرج عنه القفص ، وإقبالَ الغابة على الوحش القنيص ؛ إذا وثب وثبة الحياة ، فطار بها ، وإقبال الفلاة على الظَّبي الأسير إذا ناوَصَ(١) ، فأفلت من الحِبالة(٢) .

وتقدَّم فادَّغم في الجماعة ، وقال لهم : أنا ابنُ المدير . فنظروا إليه جميعاً ، ثمَّ نظر بعضهم إلى بعضٍ ، وسَفَرتْ أفكارهم الصَّغيرة بين أعينهم ، وقال منهم قائلٌ : إنَّ حذاءه وثيابه ، وطربوشه كلُّها تقول : إنَّ أباه المدير .

فقال آخر : ووجهه يقول : إنَّ أمَّه امرأة المدير . . .

---

(١) « ناوص » : جاذَبَ .

(٢) « الحبالة » : المصيدة .

فقال الثَّالث : ليست كأمِّك يا بغْطيطي ، ولا كأمِّ جُعْلُص ![1] .

قال الرَّابع : يا ويلك ؛ لو سمع جُعلص ! فإنَّ لكماتِه حينئذٍ لا تترك أمَّك تعرف وجهَك من القفا !

قال الخامس : ومَن جعلص هذا ؟ فليأتِ لأرِيَكم كيف أصارعه ! فأجتذبه ، فأعصره بين يديَّ ، فأعتقل رجله برجلي ، فأدفعُه ، فيتخاذل ، فأعرُكه ، فيخرُّ على وجهه ؛ فأسمِّره في الأرض بمسمارٍ !

فقال السَّادس : هاها ! إنَّك تصف بأدقِّ الوصف ما يفعله جعلص لو تناولك في يده . . . !

فصاح السَّابع : ويلكم ! ها هو ذا جعلص ! جعلص ! جعلص !

فتطاير الباقون يميناً ، وشمالاً ، كالوَرق الجافِّ تحت الشَّجر ضربته الرِّيح العاصف . وقهقه الصَّبيُّ من ورائهم ، فثابوا إلى أنفسهم ، وتراجعوا ، وقال المُستَطيل منهم : أما إنِّي كنت أريد أن يعدوَ جعلص ورائي ، فأستطرِد إليه قليلاً أُطمِعُه في نفسي ، ثم أرتدُّ عليه ، فآخذه ، كما فعل « ماشيست الجبار »[2] في ذلك المنظر ؛ الَّذي شاهدناه .

وقهقه الصِّبيانُ جميعاً . . . ! ثمَّ أحاطوا (بعصمت) إحاطة العشَّاق بمعشوقةٍ جميلةٍ ، يحاول كلٌّ منهم أن يكون المقرَّب المخصوص بالحُظوة ، لا من أجل : أنَّه ابن المدير فحسب ، ولكن من أجل أن ابن المدير تكون معه القروش . . . فلو وجدت هذه القروش مع ابن زبَّال ؛ لما منعه نسبه أن يكون أميرَ السَّاعة بينهم ، إلى أن تنفَدَ قروشُه فيعود ابنَ زبَّالٍ . . !

وتنافسوا في (عصمت) وملاعبته ، والاختصاص به ، فلو جاء المديرُ نفسُه يلعب مع آبائهم ، ويركبهم ، ويركبونه ، وهم بين نجّارٍ ، وحدَّادٍ ، وبنَّاءٍ ، وحمَّالٍ ، وحوذيٍّ[3] ، وطبَّاخٍ ؛ وأمثالهم من ذوي المهنة ، والمَكْسبة الضَّئيلة ؛

---

(١) للعامة أسماء ونِسَب غريبة ، ومنها هذه . (ع) .

(٢) بحّار إيطالي كالمارد ، عريض الألواح ، وثيق التركيب ، يُعجَبُ الأطفالُ به أشدَّ الإعجاب ، وإذا شهدوه في السِّيما كاد تمثيلُه يَشُبُّ بهؤلاء الأطفال إلى سِنِّ الرجولة في ساعةٍ واحدة . (ع) .

(٣) « حوذي » : هو سائق المركبة التي تجرُّها الخيل .

لكانت مطامع هؤلاء الأطفال في ابن المدير أكبرَ من مطامع الآباء في المدير .

وجرت المنافسةُ بينهم مجراها ، فانقلبت إلى مُلاحاةٍ[١] ، ورجعت هذه الملاحاة إلى مشاحنةٍ ، وعاد ابن المدير هَدَفاً للجميع يدافعون عنه ، وكأنَّما يعتدون عليه ؛ إذ لا يقصد أحدٌ منهم أحداً بالغيظ إلا تعمَّدَ غيظ حبيبه ؛ ليكون أنكأ له ، وأشدَّ عليه !

وتظاهروا بعضُهم على بعضٍ ، ونشأت بينهم الطَّوائل[٢] ، وأفسدهم هذا الغِنى المتمثِّلُ بينهم .

ويا ما أعجبَ إدراك الطُّفولة ، وإلهامها ! فقد اجتمعت نفوسهم على رأيٍ واحدٍ ، فتحوَّلوا جميعاً إلى سفاهةٍ واحدةٍ ، أحاطت بابن المدير ، فخاطرَه أحدُهم في اللعب ، فقمرَه ، فأبى إلا أن يعلوَ ظهرَه ، ويركبه ؛ وأبى عليه ابنُ المدير ، ودافعَه ، يرى ذلك ثَلماً في شرفه ، ونسبه ، وسطوةِ أبيه ؛ فلم يكد يعتلُّ بهذه العلَّة ، ويذكر أباه ؛ ليعرِّفهم آباءهم . . . حتَّى هاجت كبرياؤهم ، وثارت دفائنُهم ، ورقصت شياطينُ رؤوسهم ، وبذلك وضع الغبِيُّ حقدَ الفقر بإزاء سُخرية الغنى ؛ فألقى بينهم مسألةَ المسائل الكبرى في هذا العالم ، وطرحَها للحلِّ . . !

وتنفَّشُوا للصَّولة عليه ، فسخِرَ منه أحدهم ، ثمَّ هزأ به الآخر ، وأخرج الثَّالث لسانَه ، وصدمه الرَّابع بمنكبه ، وأفحشَ عليه الخامس ؛ ولكزه[٣] السَّادس ، وحثا[٤] السَّابع في وجهه التراب !

وجهَد المسكين أن يفرَّ من بينهم ، فكأنَّما أحاطوه بسبعة جدرانٍ ، فبَطل إقدامُه ، وإحجامُه : ووقف بينهم كما كتب الله . . . ! ثمَّ أخذته أيديهم فانجدَل على الأرض ، فتجاذبوه يُمرِّغونه[٥] في التُّراب !

وهم كذلك ؛ إذ انقلب كبيرُهم على وجهه ، وانكفأ الَّذي يليه ، وأزيح

(١) « ملاحاة » : منازعة ، ومخاصمة .

(٢) « الطوائل » : جمع الطائلة ، وهي الثأر ، والعداوة .

(٣) « لكزه » : ضَربه بجُمْع كفِّه في صدره .

(٤) « حثا » : رمى .

(٥) « يمرغونه » : يقلبونه .

الثَّالث ، ولُطِمَ الرَّابع : فنظروا فصاحوا جميعاً : « جُعْلُص ! جُعْلُص ! » وتواثبوا يشتدُّون هَرباً .

وقام (عصمت) يَنْتَخِلُ التُّرابُ من ثيابه ، وهو يبكي بدمعه ، وثيابُه تبكي بترابها . . . ! ووقف ينظر هذا الَّذي كشفَهم عنه وشرَّدتهم صَوْلتُه ، فإذا جُعلص ؛ وعليه رَجَفان من الغضب . وقد تبرْطمَتْ[١] شفتُه ، وتَقَبَّض وجهه ، كما يكون « ماشيست » في معاركه حين يدفع عن الضُّعفاء .

وهو طفلٌ في العاشرة من لِدات (عصمت) ، غير أنَّه مُحتَنِك في سنِّ رجلٍ صغيرٍ : غليظٌ ، عبلٌ[٢] ، شديدُ الجِبلَّةِ ، متراكِبٌ بعضُه على بعضٍ[٣] ، وكأنَّه جِنِّيٌّ مُتقاصِرٌ ، يهُمُّ أن يطولَ منه المارد ، فأنِس به (عصمت) ، واطمأنَّ إلى قوَّته ، وأقبل يشكو له ، ويبكي !

قال جعلص : ما اسمك ؟

قال : أنا ابن المدير . . . !

قال جعلص : لا تبْكِ يابن المدير ؛ تعلَّمْ أن تكون جَلْدًا[٤] ، فإنَّ الضَّرب ليس بذلٍّ ، ولا عارٍ ، ولكنَّ الدُّموع هي تجعله ذلاً وعاراً ؛ إنَّ الدُّموعَ لتجعلُ الرَّجل أنثى . نحن يابن المدير نعيش طول حياتنا إمَّا في ضرب الفقر ، أو ضرب النَّاس ، هذا مِنْ هذا ؛ ولكنَّك غنيٌّ يابن المدير ، فأنت كالرَّغيف (الفِينو) ضخمٌ مُنتفخ ، ولكنَّه ينكسر بلمْسة ، وحشوُهُ مثلُ القطن !

ماذا تتعلَّم في المدرسة يابن المدير ؛ إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً يأكلُ من يريد أكله ؟! وماذا تعرف ؛ إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشرِّ يوم الشر ؟! وكيف تصبر للخير يوم الخير ، فتكون دائماً على الحالتين في خيرٍ ؟

قال عصمت : آه ؛ لو كان معي العسكريُّ !

قال جعلص : ويحك ! لو ضربوا عنزاً ؛ لما قالت : آه ؛ لو كان معي العسكريُّ !

---

(١) « تبرطمت » برطم : عَبَس وانتفخ من الغضب ، وأدلى شفتيه حَنَقاً .

(٢) « عبل » : ضخم .

(٣) أي : شديد فَتل العضل ، مكتنز اللحم . (ع) .

(٤) « جلداً » : صابراً .

قال عصمت : فمن أين لك هذه القوَّة ؟

قال جعلص : من أنِّي أَعْتمِل بيديَّ ، فأنا أشتدُّ ؛ وإذا جعت أكلت طعامي ، أمَّا أنت ، فتسترخي ، فإذا جعتَ أكلك طعامُك ، ثمَّ مِن أنِّي ليس لي عسكريٌّ . . !

قال عصمت : بل القوَّة مِن أنَّك لست مثلنا في المدرسة !

قال جعلص : نعم ، فأنت يابن المدرسة كأنَّك طفلٌ من ورَق ، وكرَّاسات ، لا من لحمٍ ، وكأنَّ عظامَك من طباشير ! أنت يابن المدرسة هو أنت الذي سيكون بعد عشرين سنةً ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون ؟! وأمَّا أنا ابن الحياة ، فأنا من الآن ، وعليَّ أن أكون « أنا » من الآن !

أنت . . .

* * *

وهنا أدركهما العسكريُّ المسخَّر لابن المدير ، وكان كالمجنون يطير على وجهه في الطرق يبحث عن (عصمت) ، لا حبّاً فيه : ولكن خوفاً من أبيه ، فما كاد يرى هذا العَفَرَ[١] على أثوابه حتَّى رنَّت صفعته على وجه المسكين جعلص !

فصعَّر هذا خدَّه ، ورشقَ عصمت بنظرِه ، وانطلق يعدو عَدْوَ الظَّليم[٢] !

يا للعدالة ! كانت الصَّفعة على وجه ابن الفقير ، وكان الباكي منهما ابن الغنيِّ . . !

* * *

وأنتم أيها الفقراء ! حسبكم البطولة ، فليس غِنَى بَطلِ الحرب في المال والنَّعيم ، ولكن بالجراح ، والمشقَّاتِ في جسمه ، وتاريخه .

* * *

---

(١) « العفر » : التراب .

(٢) « الظليم » : ذَكَر النَّعام .